الطبيعة في شعر ابن خفاجة

عبد الرحمن جبير

في سنة 450 للهجرة ولد الشاعر أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة في الأندلس في جزيرة شقر ونشأ فيها كما ينشأ غيره حسب نظام الحياة في تلك العصور على أخذ اللغة العربية عن الرواة والنحويين، وعلى تلقن أحكام الفقه عن الفقهاء والمعلمين، حتى كانت له في الفقه مكانة لم ينكرها معاصروه فلقبوه بالفقيه.

ربما خطر ببالك أننا سنأخذ بعد هذه المقدمة في وصف حياة الشاعر بعد زمن التعلم، وربما لاح لك أن حياته بعد أن صارت له بالفقه تلك المكانة ستكون مملوءة بالأحاديث العلمية والمجادلات الدينية وانه سوف لا يخرج من مجلس علماء إلا ويدخل في مجلس فقهاء، ربما لاح لك أن حياته ستكون بعد أن لقب بالفقيه حياة مدرس جاد أو قاض عادل، أو انه سيسلك سبيل المناصب في الدولة من أمارة أو وزارة، ربما لاح لك ذلك على وجه الظن إن لم يكن على وجه التحقيق، لأنه نتيجة محتومة لحياة التلمذة التي قضاها بين الجد والدرس، وبين مسائل الفقه وأحكام الدين، وبين كتب الكوفيين وكتب البصريين، فنحن نجيبك عما خطر ببالك بالإيجاب، وعما لاح لك بالسلب، ونقول فيه انه كان في طبيعة أبي نؤاس وفي حالة فقيهان غلب عليهما الشعر، وعالمان غلب عليهما الظرف والدعابة

عاش ابن خفاجة في الأندلس وهي يومئذ جنة الله في أرضه، أكسبها موقعها اعتدال المناخ ورقة الهواء، وسقاها الغمام من دموعه، في أكثر أيام السنة، وتفجرت أرضها بالينابيع والجداول في كثير من وديانها، ونبتت الأعشاب والأزهار حول هذه المياه، وقامت فيها الأشجار فلا ترى إذا سرت فيها إلا مياها قوية دافقة، وظلالا وارفة واسعة، في أيام استتب الأمن فيها على يد العرب الفاتحين، وعملت يدهم فيها فأقاموا الجسور وشيدوا القصور وبنوا المدن، ثم خططوا الرياض والبساتين وغرسوا بها الأشجار والأزهار والرياحين، وأسالوا إليها مياه الأنهار والجداول، وأقاموا فيها البرك الجميلة، والبحيرات الواسعة، والمجاري الكثيرة، فدنت قطوفها وكثرت خيراتها، وتحولت من حقول خربة واسعة وأحراش كثيفة إلى بلاد عامرة، ورياض زاهرة، وقصور مشيدة، فتحولت من ملك مضطرب قبل الفتح إلى ملك ثابت وطيد بعده، وتحولت حياتها من حياة ريفية مقلة، إلى حياة مترفة ساحرة

وكان من الطبيعي أن يكون لســـكان تلك الأرض عواطف رقيقة ونفوس جميلة لما للطبيعة الماثلة في كل وقت وفي كل مكان أمام أعينهم من أثر، ولما في حياتهم من ترف ونعيم

وابن خفاجة في حياته يمثل لنا الرجل الأندلسي الذي عاش في تلك العصور أحسن تمثيل، وفوق ذلك كان لا يميل إلى مناصب الدولة ولم يكن له عمل من الأعمال العامة، وإنما عاش كما وصفه الأستاذ الزيات في كتابه تاريخ الأدب العربي (عيشة الفنانين خيلع العذار طليق الإسار) وكان له من طبيعته خير مساعد على الهرب بنفسه من بين كتب الفقه والنحو، ومن بين جدران قاعات الدروس والمجالس العلمية، فاقتصـــر في حياته على مشـــاهدة طبيعة بلاده الساحرة ومناظرها الزاهية، في اجتماعاته على مجالس الأدباء والشعراء في بياض يومه، وحضـــور ليالي اللهو والخمر تحت أشـــجار الأراك بين الأباريق والأقداح وبين الورد والريحان، حتى يمســـح الصـــبح كحل الظلام (فامتلأت عينه ونفســـه من جمالها، وراح يبرز هذا الجمال المعنوي في حلل شعرية)

ألممنا في المقدمة الســـابقة إلمامة قصـــيرة بوصـــف طبيعة الأندلس، وطبيعة ابن خفاجة، فالأولى كانت جميلة المناظر، زاهية الألوان، والثانية كانت كوجه البحيرة صفاء وركودا ينعكس فيها كل مشـــهد من مشـــاهد الكون جميلا جذابا، وقلنا إن طبيعة ابن خفاجة أحبت طبيعة بلاده حبا بلغ به حد الغرام حتى هجر حياة الدرس وحياة العمل واقتصـــر على حياة كحياة الفنانين الذين ينقطعون إلى مشاهدة مناظر الحياة التي تتعلق بفنهم، ولعلك ترانا محتاجين إلى مثل هذه المقدمة، فان الموضـوع الذي كلفنا أنفسـنا بحثه يحتاج إلى مثل هذه المقدمة، إذ كل ما نقصد من هذا الموضوع أن نقدم بين يديك الصور التي اجتلاها بن خفاجة عن الطبيعة.

ترى الطبيعة في شعر ابن خفاجة ماثلة واضحة، تقرأ له القطعة فترى وتسمع وتشم. ترى الناظر واضـحة جلية، وترى خضـرة الأشـجار، وحمرة الأثمار، وبياض الحباب، وصـفرة الشمس، وترى ذهب الأصيل ولجين الماء وزرقة السماء، ثم تسمع نشيد المغني ووقع الرباب وغناء الحمام، ورنين المكاء وخرير الماء، وتشم عرف الروضة الغناء، وأريج الأزهار البيضاء، ورائحة الورد الحمراء، ثم تقرأ له من التشبيه الساحر والطباق الدقيق، والكتابة اللطيفة ما لا يخرج عن الربا الخضـــراء والوهاد الشـــجراء والأدواح اللفاء، وما لا يخرج عن العنبر والعرار والسوسن والأقحوان. إن بلاداً يصفها الشاعر فيما يصف فيقول:

يا أهـل أنـدلـس لله دركـمـوا   مـاء وظـل وأنهـار وأشـجـار

مـاجـنـة الخـلـد إلا في ديـاركـمـوا   ولـو تخـيرت هـذا كـنـت أخـتـار

لا تحسـبوا بعد ذا إن تدخلوا سـقرا   فـليس تـدخـل بعـد الجنـة النـار

وان حياة يحياها الشاعر كما وصفها فيقول:

إنمـا الـعـيـش مـدام أحمـر   قـام يسـقـيـه غـلام أحـور

وعـلـى الأقـداح والأداوح مـن   حـبـب نـور وتـبر أصـفـر

فـكـأن الـدوح كـأس أزبـدت   وكـأن الـكـأس دوح مـزهـر

إن تلك الأرض وهذه الحياة لدليل واضح على صفاء نفسه ودقة حسه، وعلى تأثيره بمشاهد أرضه إلى حد يشبه جنون الفنانين فقد كان يذكر الطبيعة في مواقفه التي وقفها راثيا باكيا وفي مواقفه التي وقفها زاهدا متململا، وفي مواقفه التي وقفها معاتبا ممضـا، وفي مواقفه التي وقفها مادحا يمدح الإخوان والقضاة، وفي مواقفه مداعبا إخوان الود ورفاق اللهو والسمر

لقد كان للطبيعة في لطف نفس الشاعر ورقة حسه أثر، وكان للطبيعة في شعره ظل، وكان للطبيعة في كل أغراضه التي قال بها الشعر ذكر، فهو (شاعر الطبيعة ومصورها) كما قال الأستاذ الزيات

نفس الشاعر:

لأبن خفاجة في شعره صورة صادقة من طبيعة نفسه ففي قوله:

إنمـا الـعـيـش مـدام أحمـر   قـام يسـقـيـه غـلام أحـور

إلى آخر الأبيات صورة لتلك النفس التي لا ترتاح إلا إلى خمرة حمراء من يد جميل أحور في ظل الدوح المزهر

فهو لا يرى في الحياة شـــيئا غير هذا، أو كأنه لا يريد أن يرى في الحياة شـــيئا غير ما ذكر، أو قل أنه يضـــع بذلك نموذجا للحياة اللذيذة كيف تكون، ألا ترى أنه كيف عكف على رشف الكؤوس الحمراء ومراقصة الأغصان الخضراء:

عـــاطـــر إخـــلاءك المـــدامـــا واســـتســـق لـلأيـكـة الـغـمـامـا

وراقــص الــغصـــــن وهــو رطــب يــقــطــر أو طــارحــا لحــمــامــا

فهو لا يرى للحياة أن تنهك الأذهان بالتفكير فيها، ولا يرى لها أن تهلك المرء بالعمل لها، وليس للحياة أن نجعل من الإنسان عبداً ذليلا للجد والعمل. ولكنه يرى أن تكون الحياة ألهية جميلة يتلهى بها الإنسان عن مشاقها، ويتسلى بها عن أحزانها، ويرتاح لها، ولا يرى في الحياة ألذ من رشف الكأس الوردية، ولا أروح للنفس من مراقصة الأغصان الرطبة، ولا ألذ في السمع من مطارحة الحمام ولا أجمل في العين من ألوان النور في الصباح والمساء في الروضة الغناء، فابن خفاجة لا تطيب له الحياة إلا عند شـــواطئ الجداول والينابيع وتحت ظلال الأدواح، وبين الأباريق والأقداح انظر إليه كيف يقول:

أمـــا لـــديـــك حـــلاوة أمـــا عـــلـــيـــك طـــلاوة

طـــايـــب وداعـــب ولاعـــب واتـــرك ســـــجـــايا الـــبـــداوة

فكأن حياة الجد وطبيعة الانقباض والوحشـــة لا توافق مذهبه أو قل لا تتشـــابه ولا تتجانس مع طبيعته التي تتعشق السرور ونفسه التي تحب اللهو والعبث.

لم يبق بعد هذا من شـــك في أن طبيعة الرجل كانت طبيعة ســـرور وطرب، بل كانت فوق ذلك طبيعة متفائل يهزأ بمصـــاعب الحياة وليس من شـــك في أن نفســـه كانت تميل إلى الهزل وتميل إلى العبث، بل ليس من شـــك في أن حياته كانت حياة مســـتهتر يهرب من وجه

الحياة العابس إلى وجهها الضاحك، فلم يتول عملا من الأعمال العامة. ولم يتصد لمدح الأمراء والوزراء والملوك على كثرة تهافت العلماء عليهم، وعلى حاجة الملوك إلى أمثاله.

هنالك ملاحظة أخرى: هي أن ابن خفاجة كان على علمه وفقهه لا يشتغل بالعلم ولا بالفقه، ولعله كان يعتقد أن للعلم فضيلة في ذاته وان على الإنسان أن يتعلم العلم لا ليجعله آلة تدر عليه المال، بل كان يعتقد أن العلم جمال لأهله وزينة لهم. ومثل هذا الاعتقاد نجده في قوله:

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم فيها صدور مراتب ومجالس

وتزهدوا حتى أصابوا فرصة في أخذ مال مساجد وكنائس

فهو ينعى على أولئك الذين يجعلون العلم وسيلة لتصدر المجالس، ولنهب المساجد والكنائس، ويعيب عليهم ذلك. ولعل هذا هو السبب الذي دعا ابن خفاجة إلى أن يعرض عن مجالسة علماء عصره وأن يصدف عن مجالس العلم ومسائل الفقه، وأن يقتصر في مجالسه على مجالس الأدباء والشعراء، وأن يقتصر في أحاديثه على ذكر المتنزهات، وأن يقتصر في شعره على وصف الطبيعة:

هذه هي الصورة الواضحة التي نراها للرجل في شعره. نفس تميل إلى السرور والبهجة وطبيعة تهرب من الجد إلى الهزل، ومن الانقباض إلى الانشراح، ومن اللذة الآجلة إلى اللذة العاجلة، ومن التحجب والحياء والتكلف إلى اللهو والعبث والمجون. فليس بغريب أن تميل هذه النفس وتلك الطبيعة إلى مجالس السرور والطرب وإلى معاطاة المدام، وليس بغريب بعد هذا أن يصف ابن خفاجة في شعره مجالس أنسه، وأن يصور لنا بمقطوعات رائعة الأنهر الفياضة والضفاف الخضراء والرياض الفيح.

وصف الطبيعة: -

وفي وصفه مناظر الطبيعة وفي تشبيهه إياها بمناظر وأشياء تشابهها لا يخرج في كل هذا عن الطبيعة في شيء. فيشبه النهر المتعطف والأزهار النابتة حوله بمجرة السماء.

متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكنفه مجر سماء

ويشبهه أيضا وقد حفت به الغصون بأهداب العين الزرقاء

وغـدت تحف بـه الغصـــون كـأنهـا هـــدب يحـــف بمـــقـــلـــة زرقـــاء

ويصف موقد قد اشتعلت فيه النار فيقول:

مـــنـــقســـــم بـــين رمـــاد أزرق وبـــين جمـــر خـــلـــفـــه يـــلـــتـــهـــب

كـــأنمـــا خـــرت سمـــاء فـــوقـــه وانـكـــدرت لـيـلا عـلـيـه شـــــهـــب

فهو في وصفه الطبيعة لا يخرج عن الأوصاف والتشبيهات التي تحتويها الطبيعة: فالنهر المتعطف والأزهار النابتة حوله، وزرقة النهر وأغصان الأشجار القائمة على شاطئيه، والموقد المشتعل، والرماد الأزرق والجمر الأحمر، كلها مناظر طبيعية؛ كذلك مجرة السماء والمقلة الزرقاء والسماء المتساقطة، والشهب المنكدرة كلها مناظر طبيعية، من هذا يمكنك أن تلاحظ إلى أي حد بلغ غرام ابن خفاجة بالطبيعة وحبه لها. وأنظر إليه كيف يصف ما فعل بهم الطرب وكيف يشبه الهلال بالطوق المذهب:

واهتز عطف الغصـــن من طرب بنـا وأفـتـر عـــن ثـغـــر الهـــلال المـغـــرب

فـكـــأنـــه والحســـــن مـقـــترن بـــه طوق على بـرد الـغـمـامـة مـذهـب

فهو يشبه اهتزازهم من شدة الطرب وقت المساء الساحر بالغصن يهتز وينعطف، ثم شبه الهلال الذي ابتسم عند المغرب بطوق ذهبي على برد الغمامة. وقال يصف الصباح الرائع:

والصـــبح قـد صـــدع الظلام كـأنـه وجـه مضـــيء شـــف عنـه قنـاع

فقد شبه نور الصبح حين ينتشر فيمحو ظلمة الليل بوجه وضاء شف عنه قناع رقيق. ويصف الصباح في غير موضع فيقول:

وقـد مســح الصــبح كحـل الظلام وأطـلـع فـود الـدجـى أشـــيـبـا

فكما أن الصبح المضيء والدجى المظلم من مناظر الطبيعة فكذلك كحل الظلام وفود الدجى الأشيب صورتان عن الليل المظلم والصباح المنير، ويقول في تشبيه الظلام بالكحل والقطر بالعبرات

يجــول لــلــغــيــم كــحــل فــيــه ولــلــقــطــر عــبره

فلم يخرج في تشـــبيه الغمامة الدكناء والأمطار الهاطلة عن كحل الكاحل وعن العين المستعبرة، ويشبه خيوط الشمس الذهبية في المساء، ولون الماء الصافي فيقول:

والريح تعبـث بالغصـــون وقـد جرى ذهـب الأصـــيـل عـلـى لجين المـاء

والذهب الأصفر واللجين الفضي كلها ألوان طبيعية: فكأن ابن خفاجة يحتقر الصناعة ويحتقر ألوانها، فلا يشبه مناظر بلاده التي يراها إلا بمناظر وألوان طبيعية، ولا يصور الطبيعة إلا بألوان وأدوات طبيعية، أو قل أنه رأى أن الصـــناعة والحياة الاجتماعية أقل مناظر وأقل ألوانا من الطبيعة، فمال عنها إليها يمتع الطرف ويقول الشعر ويصف الشيب والشباب فيقول:

فـأحســـن من حمام الشـــيب عندي غـراب شـــبـيـبـة ألـف الـنـعـيـبـا

فهو يشبه الشيب المخضب بالحناء بالحمام، ويشبه شعر رأسه الأسود في زمن الشباب بالغراب، ثم يقول: إن نعيب الغراب المشؤوم أحسن عندي من هديل الحمام المحبوب.

ونختم كلامنا الآن بهذه المقطوعة وهي تصـف عشـية من عشـيات الأنس، ولاحظ إذا شئت فيها أنه لا يخرج في تشبيه مناظر الطبيعة عن الطبيعة:

وعشـــي أنســـأضـــجعتني نشـــوة فـيـه تـمـهـدمضـــجـعـي وتـدمـث

خـلـعـت عـلـي بـه الأراكـة ظـلـهـا والغصـــن يصـــغي والحمـام يحـدث

والشـــمس تجنح للغروب مريضـــة والـرعـد يـرقـى والـغـمـامـة تـنـفـث

وصف الآلات والأدوات: -

كان علينا أن ننتقل بك في هذا الفصل إلى وصف الخمر ووصف مجالسها في شعر ابن خفاجة، وأن نريك الطبيعة الماثلة في ذلك النوع من الشعر؛ ولكنا رأينا أن نذكر شيئا عن تشبيهه الآلات والأدوات، ووصفه للخيل والذئاب، قبل أن نذكر لك شيئا من أقواله في الخمر، ومن تشبيهه إياها، خوفا عليك من أن تنتشي وتطرب فلا تعود تصغي إلينا.

وهو في وصفه السيف والرمح والقوس والكأس والزورق، وفي وصفه للفرس الأشقر، والكلب والأرنب، لا يخرج في كل هذا عن الطبيعة في شيء، ولا يشبه تلك الأدوات إلا بما يماثلها في الطبيعة. فيقول في السيف:

ومرهف كلسان النار منصلت يشفى من الثار أو ينفى من العار

فهو يشبهه بلسان النار الملتمع. ثم يقول:

تخال شعلة نار منه طائرة في عارض من عجاج الخيل موار

يمضي فيهوى وراء النقع ملتهباً كما تصوَّب يجري كوكب سار

وهو يشبه قول بشار:

كأن مثار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهاوي كواكبه

ويقول أيضاً في وصف كأس أهديت اليه:

ومثلك مد يمين الندى بعلق يطيل عنان النظر

بأزرق سالت به صفرة كما طرز البرق ثوب السحر

يقول إنه كأس ازرق قد سالت به صفرة فبدا كسماء أبرقت في ليل مظلم.

ويقول كذلك في الرمح:

وأسمر يلحظ عن ازرق كأنه كوكب رجم وقد

يعتمد العين اعتماد الكرى وينتحي القلب انتحاء الكمد

فان السمرة والزرقة وكواكب الرجم المتوقدة والكرى والكمد كلها صور لأشياء طبيعية،شبه بها عود الرمح الأسمر، وسنانه الأزرق، ولمعانه وقت الطعن.

وأجمل ما قاله في وصف الإله وصفه القوس فهو يقول:

عوجاء تعطف ثم ترسل تارة فكأنما هي حية تنساب

وإذا انحنت والهم منها خارج فهي الهلال أنقض منه شهاب

فلم يخرج في تشبيهها ووصفها عن حيوان الطبيعة وعن أفلاكها.

ويقول في صفة كلب وأرنب:

وأطلس ملء جانحتيه خوف لأشوس ملء شدقيه سلاح

فهو يشبه الأرنب الهاربة امام الكلب بالذئب للتشابه الموجود بين لونيهما، وللتشابه الموجود بين حاليهما، لأن الذئب يهرب من وجه الكلب، ويعبر عن الكلب بالأشوس، وهي حال ضم الجفنين للتحديق والنظر، ويشبه انيابه التي كشر عنها بالأسلحة التي يحملها الصياد.

ويقول في صفة فرس أشقر عليه حلى لآلئه:

بسام ثغر الحَلْي تحسب أنه كأس أثار بها المزاج حبابا

فهو يشبهه بكأس من الخمر قد مزجت بالماء فبدت صفراء اللون وطفا عليها حباب ابيض.

واقرأ هذه المقطوعة في وصف نزهة ركب اليها زورقا:

وانساب بي نهر يعب وزروق فتحملتني عقرب وحباب

نجلو من الدنيا عروساً بيننا حسناء ترشف والمدام رُضاب

ثم ارتحلت وللسماء ذؤابة شهباء تخضب والظلام خضاب

تلوى معاطفي الصبابة والصبا والليل دون الكاشحين حجاب

حيث استقل الجسر فوق زوارق نسقت كما تتراكب الأحباب

لم تستبق وكأنها مصطفةً دُعم تنازعك السباق عِراب

فقد شبه أولاً الزورق الأدهم بالعقرب لانحناء مقدمه إلى الأعلى، وانحناء متوسطه إلى الأسفل، وشبه ماء النهر الثائر المائج المزبد بالحباب. ثم شبه ثانية اصطفاف الزوارق باصطفاف الخيل العراب للسباق.

إلى هنا انتهى كلامنا عن وصف ابن خفاجة للآلات والأدوات، وقد أريناك تشبيهاته وأوصافه التي أتى بها ولم يخرج فيها عن حبيبته الطبيعة التي يرى بها كل ما موجود، وكأنه لا يرى في الحياة إلا الطبيعة، فلا يتكلم إلا عنها ولا يشبه إلا بها.

فان كان البحتري قد أثر فيه حب علوة الحلبية فقال الشعر الغنائي الرقيق، ورسم الصور الشعرية الجميلة، وأخذ في كل هذا على نفسه ألا يبوح باسمها.

وسميتها من خشية الناس زينباً وكم سترت حباً عن الناس زينب

فان ابن خفاجة أثرت فيه الطبيعة فهام بها وأحبها حتى كان يذكرها في شعره واصفاً أو متغزلاً، صاحياً أو نشوان.

وكأنه وهو نشوان أقدر على وصف الطبيعة والتشبيه بها، أو كأن حبه لها يهيج فيه قريحته الشعرية حين يجلس إلى الشراب ثم لا يرى بداً من ذكرها لأنه مفتون بجمالها مسحور بمناظرها.

أقواله في الخمر: -

يصف ابن خفاجة الخمر ويصف كؤوسها ويشبهها فيتفنن في التشبيه والوصف، فإذا أردنا أن نقايس بينه وبين أبي نواس في وصفها، فهو بلا شك دون منزلة أبي نواس. لأن أبي نواس يقصد إلى الخمر قصداً، فينشئ القصيدة على ذكرها ويجعلها موضوعاً من الموضوعات الشعرية، ولكن ابن خفاجة في مقطوعاته التي يذكر فيها الخمر يجعلها أحد المواضيع التي

ينشئ فيها المقطوعة. فأكثر مقطوعاته الخمرية ينشئها على ذكر نزهة جميلة مع إخوان صدق في ظلال الأدواح يشربون ويسمرون، أو على ذكر مجلس إخوان وأصدقاء يقرضون الشعر ويصفون فيه مجلسهم واعتكافهم على الخمر، أو يصف الخمر أثناء تغزله، وفي كل مقطوعة من مقطوعاته التي فيها للخمر ذكر لا نرى الأ البيت والبيتين. قال من وصف يوم أنس وفكاهة:

وجاء بها حمراء أما زجاجها فماء، وأما ملؤه فلهيب

فهو يقول: انها خمرة حمراء كأنها لهيب النار المتوقدة في كأس كأنه الماء صفاء وشفافية:
ويصف الخمر بيد حبيب له فيقول:

مشمولة بينا ترى في كفه ماء، ترى في خده الهوبا

فهو يقول: انها باردة الطعم لهبوب الشمال عليها كأنها الماء صفاء، وانه محمر الخدين كأنهما لهيب نار مستعرة، وقال أيضاً:

فجاءت بحمراء وقادة تلهب في كأسها كوكبا

فقد شبهها بالكوكب المتوقد وهو يشبه قول ابي نواس:

إذا عب فيها شارب القوم خلته يقبل في داج من الليل كوكبا

ويشبهها بالفرس الأشقر فيقول:

وقد جاء من كاس السلافة أشقر يسابقه من جدول الماء أشهب

ويقول في وصفها أيضاً وهو يتغزل:

حيا بها ونسيمها كنسيمه فشربتها من كفه في دره

منساغة، فكأنها من ريقه محمرة، فكأنها من خده

إلى هنا لا نرى في وصف ابن خفاجة الخمر وفي تشبيهه إياها شيئاً يخرج عن الطبيعة؛ فقد شبهها بلهيب النار المشتعلة وشبه كأسها بالماء الصافي الرائق، ثم شبهها بالكوكب المتوقد، ثم شبهها بالفرس الأشقر للونها الأشقر، ثم شبهها وقال انها منساغة فكأنها من ريق الحبيب الخصر العذب، وإنها حمراء كأنما قد عصرت من خده الوردي.

واقرأ هذه المقطوعة يداعب بها الساقي الأسود، وانظر كيف يصف الخمر الحمراء والكؤوس البيضاء، ثم ينبري فيصف لنا المكان الذي جلسوا به، والوقت الذي شربوا فيه، ولاحظ إذا شئت تشبيهاته وأوصافه التي لا يخرج بها عن مناظر الطبيعة وعن أوصافها:

رب ابن ليل سقانا والشمس تطلع غره

فظل يسود لونا والكأس تسطع حمره

كأنه كيس فحم قد أوقدت فيه جمره

إلى أن يقول:

فظلت آخذ ياقو تة واصرف دره

حتى تثنيت غصنا واصفرت الشمس نقره

وارتد للشمس طرف به من السقم حسره

يجول للغيم كحل فيه وللقطر عبره

فهو يقول: إن عبداً اسود يسقينا منذ طلوع الشمس، وكأنه وهو يدير علينا الخمر في كؤوسها الحمراء كيس من فحم قد أوقدت فيه جمرة ملتهبة، وظللت على هذه الحال أتناول الكأس مملوءة حمراء كالياقوتة وأعيدها فارغة بيضاء كالدرة، حتى تثنيت من شدة السكر كالغصن تثنيه الرياح، وحتى اصفر لون الشمس وارتد طرفها إلى الغروب كما يرتد طرف الناعس من النعاس، وكانت الغمامة دكناء كأن بها كحل كاحل، وكانت ممطرة كأنها عين باك مستعبر.

وقال أيضا يصف متفرجا. ويصف في أثناء ذلك الخمر:

ومجـر ذيـل غـمـامـة قـد نمـقـت وشـــى الـربـيـع بـه يـد الأنـواء

ألـقـيـت أرحـلـنـا هـنـاك بـقـبـة مضـــروبـة مـن ســـرحـة غـنـاء

وقسَـــمـت طـرف الـعـين بـين رباوة مخضـــــرة وقـــرارة زرقـــاء

وشـــربتـهـا عـذراء تحســـب أنهـا مـعصـــورة مـن وجـنـتي عـذراء

حمراء صـــافيـة تطيـب بنفســـهـا وغـنـائـهـا وخـلائـق الـنـدمـاء

ثم لاحظ في هذه المقطوعات أنه يتعرض للمكان الذي شـرب عنده الخمر بالذكر، فيصـفه ويصـف الغمامة الدكناء والشـمس المريضـة: فإذا لاحظت ذلك فانك لابد واجد الاختلاف البين بين خمريات أبي نواس المطولة وبين خمريات ابن خفاجة القصـــيرة. فلعلك ترى أن ابن خفاجة لا يجعل الخمر ولا غيرها موضـــوعا يقول فيه الشـــعر، ولكنه يجعل مناظر الطبيعة ومتفرجاتها موضـوعاً يتكلم عنه ويصـفه، ثم يتعرض في أثناء وصـفه إياه إلى الخمر الحمراء والى كؤوسـها البيضـاء بالوصـف، ويتعرض إلى السـاقي والشـاربين بالذكر، فيكون من ذلك صـورة قوم عاكفين على الشـراب في أخريات النهار أو في رائعة الصـباح على ضـفاف الجداول في ظل الأدواح وبين العرار والاقاح.

هذا هو الفرق، تدركه حين تعلم أن أبا نواس كان مغرما بالخمر وان ابن خفاجة كان مغرما بالطبيعة، وان أبا نواس كانيقصد إلى الخمر قصدا فينشئ القصيدة فيها، وان ابن خفاجة كان يقصد الى الطبيعة قصداً فينشئ المقطوعة فيها، وحين تعلم أن أبا نواس في خمرياته يقصد إلى خمارة البلد فيدخلها ويشـرب ويصـف مجلسـه فيها والخمر التي يتناولها والكؤوس التي يرشـف منها، وان ابن خفاجة كان يقصد إلى المتفرجات والمناظر فيصفها ويصف مجلسه فيها، وحين تعلم أن أبا نواس كان يشـرب ويكثر من الشـرب في الحانات أو في المنازل في كل وقت حتى

يسكر وتميل به الكأس، وان ابن خفاجة لا يشرب إلا حين يدعوه جمال المنظر ورقة النسيم واعتدال الإقليم.

فأبو نواس حين يصف الخمر كابن خفاجة حين يصف الطبيعة، وابن خفاجة كأبي نواس في الإقلاع عن الخمر وفي التوبة عنها يحسنان وصفها ويجيدانه: فيقول أبو نواس:

وقلت لساقيها أجزها فلم أكن ... ليأبى أمير المؤمنين واشربا

فجوزها عني سلافا ترى لها ... إلى الأفق الأعلى شعاعا مطنبا

إذا عب فيها شارب القوم خلته ... يقبل في داج من الليل كوكبا

ويقول ابن خفاجة:

يا حبذا نادى المدام ومجتلي ... سر السرور به ومسلى الأنفس

ولئن كففت عن المدام فان لي ... نفساً تهش بصدر ذاك المجلس

لولا الحياء من المشيب لقبلت ... ثغر الحباب به وعين النرجس

فهو يتأوه ويقول: يا حبذا نادى المدام حيث السرور وحيث الطرب، ولئن كنت قد كففت عن الشراب وأقلعت عنه فأن لي نفساً تهش إليه مع الصدور، وتحن إليه على البعد، ولولا حيائي من المشيب لقبلت ثغر الحباب، وحضرت مجالس الأحباب، ويقول كذلك:

صحا عن اللهو صاح عافه خلقا ... فقام يخلع سربالا له خلقا

وعطل الكأس من شقراء سابحة ... ألا كفاها بريعان الصبا طلقا

ورب ليلة وصل قد لهوت بها ... مغازلا فلقا أو شاربا شفقا

فهو يقول: لقد صحوت عن اللهو وعفته. وقمت أخلع سرباله الخلق الرث، وقد عطلت الكأس من الخمر الشقراء بعد أن كانت في ريعان الصبا طليقة غير معطلة، ومقربة غير مبعدة، وموصولة غير مقطوعة: إلى هنا يمسك نفسه عن تذكر الماضي ولكنه بعد ذلك لا يرى بداً من ذكره فيقول، ورب ليلة قد أجتمع لي فيها خمر حمراء ووجه جميل، فكنت أقضيها بين مغازلة صباح وضاء، وبين رشف شفق أحمر.

وهو في القطعة الأولى جعل لأحباب ثغراً وأنه لولا المشيب لقبله، وفي القطعة الثانية شبه الخمر بالشفق الأحمر؛ والثغر والشفق منظران من مناظر الطبيعة.

هذا ما وعدناك به في هذا الفصل، فهل ارتحت إليه وهل أعجبت بشعر ابن خفاجة حين يذكر الخمر ويذكر معها جمال الوقت واعتدال الزمان فيسكرك بوصفه الخمر ويطربك بوصفه الطبيعة: (له رشفها دوني ولي دونه السكر)

وكأني بك تتمايل من شدة الطرب وتترنح من شعر ابن خفاجة كما ترنح العباس بن الأحنف حين سمع قول ابن الدمينة يتشوق إلى نجد:

إلا ياصبا نجد متى هجت من نجد   لقد زادني مسراك وجداً على وجد

إذا كان ذلك فاسمع إذن هذه المقطوعة في الخمر:

ندى النسيم فما ارق وأعطر   وهفا القضيب فما أغض وانظرا

فزففتها بكراً إذا قبلتها   ألقت على وجهي قناعا احمرا

ورفلت بين قميص غيم هلهل   ورداء قد تمزق اصفرا

والريح تنخل من رذاذ لؤلؤاً   رطبا وتفتق من غمام عنبرا

الطبيعة في الغزل: -

قرأت قولنا في خمريات ابن خفاجة ورأيت أقواله في الخمر، ولابد لنا حتى تزول عنك تلك النشوة التي أصابتك من جمال وصفه ومن جودة تشبيهه من أن نورد على مسامعك هذه الأبيات:

وابتع بكيس كأس مشمولة واسحب ذيول اللهو واخلع وهب

واستضحك المجلس عن قهوة قد نبهت للصبح هدءا فهب

نارية اللذعة نورية في صفرة فاقعة أو صهب

وهز من عطفيك عن نشوة غضا إذا ما نفس الصبح هب

بأبيض كالماء مستودع ما شئته من أحمر كاللهب

لو ذاب هذا لجرى فضة أو جمدت تلك لكانت ذهب

فإذا صحوت من نشوتك فاصغ إذا شئت إلى قولنا في غزله والى وصفه الطبيعة في ذلك الغزل.

وإنك بعد أن نورد على مسامعك غزله الرقيق ووصفه الأعضاء وتناسقها، والليالي وجمالها، والطيف وزيارته، ستجد في كل هذا وصفا للطبيعة لم يبلغه الكثير من أساطير الشعر. قال يتغزل:

فتق الشباب بوجنتيها وردة في فرغ أسحلة تميد شبابا

وضحت سوالف جيدها سوسانة وتوردت أطرافها عنابا

بيضاء فاض الحسن ماء فوقها وطفا به الدر النفيس حبابا

فهو يقول: إنها شابة فتق الشباب بوجنتيها وردة حمراء، كأن قامتها الهيفاء شجرة الأسحل تميد نضارة وشبابا، وكأن سوالف جيدها البلوري سوسانة، وكأن أطراف أصابعها عناب،

وهي إلى ذلك بيضاء كأنما الحسن ماء فاض فوق جسمها فطف عليه حباب أبيض: يشير بذلك إلى أنها مطوقة بقلادة من الدر. ثم يختم تغزله بهذه الأبيات:

بين النحور قلادة تحت الظلا م غمامة دون السحاب نقابا

نادمتها ليلا وقد طلعت به شمسا وقد رق الشراب سرابا

وترنمت حتى سمعت حمامة حتى إذا حسرت زجرت غرابا

ثم اقرأ قوله:

ومهفهف طاوى الحشا خنث المعاطف والنظر

ملأ العيون بسورة تليت محاسنها سور

فإذا رنا وإذا مشى وإذا شدا وإذا سفر

فضح الغزالة والغما مة والحمامة والقمر

ولاحظ بعد ذلك ما يمكنك أن تلاحظه: فلعلك ترى أن غزل ابن خفاجة لا يشابه غزل غيره من الشعراء: فهو غزل أشبه شيء بوصف مناظر الطبيعة: فهو حين يقف أمام محبوبته فيتغزل بها يكون كأنه واقف أمام منظر من مناظر الطبيعة، وكأن غرامه بالطبيعة وبمناظرها يغلب على شعره حتى في أوقات الغزل، فيشبه حمرة وجنتيها بالوردة الحمراء، وقامتها بشجرة الأسحل، ثم يرى من سوالفها السوداء فوق جيدها البلوري، ومن أطراف أصابعها التي خضبتها الحناء ما يذكره بالسوسن والعناب، ويشبه حسنها بالماء الصافي، وقلادتها اللؤلؤية بالحباب، وفي القطعة الثانية يشبه محبوبه بحيوانات الطبيعة: يشبه رنوه بالغزالة، ومشيه بالغمامة، وشدوه بالحمامة، ووجهه السافر بصفحة القمر المنير، ولعلك تلاحظ أيضا أن غيره من الشعراء يقف في غزله موقف الولهان فيمعن في وصف محبوبه. وفي وصف حاله، ثم ينبري فيبدي شكواه ويتألم ويتوجع ويصف عاطفته المهتاجة ونفسه الملتاعة.

ألا ترى إلى ابن الدمينة كيف يبث في مقطوعته لواعج نفسه وكيف يبوح بوجده الذي يسره لمحبوبه حين يهب عليه ريح الصبا فيذكره بديار الحبيب:

ألا يا صبا نجد متى هجت من نجد ... لقد زادني مسراك وجداً على وجد

أإن هتفت ورقاء في رونق الضحى ... على فنن غض النبات من الرند

بكيت كما يبكي الوليد صبابة ... وشجوا وأبديت الذي لم تكن تبدي

وقد زعموا أن المحب إذا دنا ... يمل وان النأي يشفي من الوجد

بكل تداوينا فلم يشف ما بنا ... على أن قرب الدار خير من البعد

على أن قرب الدار ليس بنافع ... إذا كان من تهواه ليس بذي ود

وانظر إلى البحتري كيف يبكي على فراق علوة الحلبية بما يثير العواطف والشجون:

قضت عقب الأيام فينا بفرقة ... متى ما تغالب بالتجلد تغلب

فإن أبك لا أشف الغليل وإن أدع ... أدع لوعة في الصدر ذات تلهب

ألا لا تذكرني الحمى أن ذكره ... جوى باطن للمستهام المعذب

أتت دون ذاك العهد أيام جرهم ... وطارت بذاك العيش عنقاء مغرب

ويالائمي في عبرة قد سفحتها ... لبين وأخرى مثلها للتجنب

تحاول مني شيمة غير شيمتي ... وتطلب مني مذهبا غير مذهبي

وما كبدي بالمستطيعة للأذى أسلو، ولا قلبي كثير التقلب

ولما تزايلنا من الجزع وانتأى مشرق ركب مصعد عن مغرب

تبينت أن لا دار من بعد عالج تسر، وأن لا خلة بعد زينب

ولكن ابن خفاجة لم يكن له من ذلك حظ قليل ولا كثير لأنه لم يكن له حبيب يبكي على فراقه ويطلب الشفاء مما قد ساهمه حبه ولم يكن له من لائم يلومه ويكلفه ما لاطاقة له به.

يكلفني عنك العذول تصبراً وأعوز شيء ما يكلفنيه

وإنما كانت حبيبته الطبيعة، والطبيعة ماثلة في كل مكان وزمان قريبة الوصال هينة اللقاء، ولأنه كان يرى أن كل ما في الحياة مجلس إخوان ود في بستان أو على ضفة جدول يقرضون الشعر، ويرشفون الخمر، ويمتعون أنظارهم بجمال الطبيعة الساحر، فلم يك في غزله إلا وصافاً للطبيعة، ولم يك في غزله ولهان، ولم يكن في غزله مفحشا. هذه ملاحظات قليلة خلاصتها انه لم يتفنن في غزله تفنن المحبين المغرمين أمثال ابن الدمينة والبحتري وغيرهما، ولم يفحش في غزله فحش أبي نواس.

المحتويات

نفس الشاعر:.....5

وصف الطبيعة: –.....7

وصف الآلات والأدوات: –.....10

أقواله في الخمر: –.....12

الطبيعة في الغزل: – 17